تصدير

بقلم/ عاطف العراقى

أستاذ الفلسفة العربية

إن صدق حدسى، فإن المهتمين بفكر فلاسفة العرب عامة، وفلسفة الفارابى على وجه الخصوص، سيرحبون بصدور هذا الكتاب والذى يبحث فى فلسفته الطبيعية والفلسفة الإلهية عند أبرز فلاسفة المشرق العربى، والذى أثرت فلسفته فى بلورة العديد من الأفكار التى قال بها أكثر فلاسفة المشرق العربى، وعلى رأسهم ابن سينا، وفلاسفة المغرب العربى، (فلاسفة الأندلس) وأولهم فيلسوف الغربة والتوحيد، ونعنى به ابن باجه.

كان هذا الكتاب فى الأصل رسالة علمية قدمتها باحثتنا زينب عفيفى للحصول على درجة الدكتوراه من إحدى جامعاتنا. وقد أشرفت على الرسالة وشاركنى فى الإشراف عليها الأستاذ الدكتور عامر النجار. وشارك فى مناقشتها الزميل الدكتور أبو الوفا التفتازانى والذى غادرنا إلى عالم الخلود والبقاء، والصديق الدكتور أحمد محمود صبحى أستاذ الفلسفة بجامعة الإسكندرية، وهو من هو، فى دقة البحث الأكاديمى الجاد، وخاصة بعد انتشار أهل الفساد فى جامعاتنا المصرية، وتزايد أعداد أشباه الأساتذة، والذين تحسبهم أساتذة، وما هم بأساتذة، بل إنهم ينتمون إلى عالم الصراصير الفكرية، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. وماذا نفعل حيالهم، ونحن لا نجد فى مصرنا العزيزة محاكم للغش الفكرى والتزييف الثقافى!

اقترحت الموضوع على باحثتنا النابهة، وقضت فى دراسته عُدة أعوام، قضتها بين عالم المخطوطات تارة، ودنيا المؤلفات العربية والأجنبية تارة

أخرى، إيمانا من جانبها بأهمية البحث الأكاديمى الجاد من جهة، وأهمية فلسفة الفارابى فى صياغة عقول ووجدان أبناء أمتنا العربية من جهة أخرى. وكانت عقليتها الناقدة خير معين لها فى تصحيح الكثير من الأحكام الخاطئة والفاسدة والتى أشاعها المفسدون فى أرض أو ميدان الفلسفة، والفلسفة منهم براء.

نعم لقد اقترحت الموضوع على باحثتنا والتى تعمل الآن عن جدارة واستحقاق، أستاذة للفلسفة العربية فى كلية الآداب - جامعة المنوفية، اقترحت الموضوع، والمنهج أيضا، لأسباب عديدة، من بينها أن باحثتنا قد حصلت على درجة الماجستير تحت إشرافى، عن فلسفة ابن باجه أول فلاسفة المغرب العربى، والصلات الفكرية بين الفارابى من جهة، وابن باجه من جهة أخرى لا حصر لها، وفى مجالات عديدة. كل من الفيلسوفين صاحب عقلية فذة غير تقليدية من قريب أو من بعيد. واهتم كل واحد منهما بالدراسات المنطقية أكثر من غيرهما من فلاسفة العرب. والرسائل الفلسفية التى قام بتأليفها الفارابى وبعده ابن باجه مازلنا نواصل العمل نحو تحقيقها ثم دراستها. وكل من الفيلسوفين قد قدم لنا تصوراً لمدينة نموذجية مثالية، الأول من خلال كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة"، والثانى من خلال كتابه "تدبير المتوحد" تضاف إلى هذه الأسباب أسباب أخرى عديدة، من بينها أن الدكتورة زينب عفيفى لديها القدرة العلمية والحس النقدى الذى يعد ضروريًا لدراسة مثل هذه الموضوعات التى نجد حولها العديد من الأحكام الخاطئة من جانب أناس يكتبون فى كل شىء. نسبوا إلى الفارابى آراء لم يقل بها. نسبوا إليه على سبيل المثال، القول بحدوث العالم، ولم يضعوا فى اعتبارهم أنه من القائلين بالفيض والذى يلزم عنه بالضرورة القول بقدم العالم وليس بحدوثه. واعتماد القول بالفيض ليس من أفلوطين فقط كما يزعم الجهال وأشباه

الأساتذة، بل أضاف إلى أفلوطين، مؤثرات جاءت إليه عن بطليموس تارة، وأرسطو تارة أخرى..

ولكن الأشباه من الباحثين والجهلاء من الأساتذة يرفضون هذا تمامًا، لأنهم يرفضون كل فكر جاء إلينا من بلاد اليونان، وبحيث يقولون إنه فكر مستورد والعياذ بالله، جاء إلينا من بلاد الفرنجة التى انتشر فيها الفساد والضلال ولم يضعوا فى اعتبارهم أنه لولا الاطلاع على الفلسفة اليونانية ودراستها، لما وجدنا لدينا فلاسفة عرب، بل إن كلمة الفلسفة تعد كما نعلم كلمة يونانية، وليست كلمة عربية. ولكن ماذا نفعل أمام الأشباه والصراصير الفكرية؟!!!

قامت الدكتورة زينب عفيفى بتقسيم بحثها إلى مجموعة من الفصول والنقاط والجزئيات، وجاء تقسيمها شاهداً على دقتها الأكاديمية وعقليتها الناقدة، وكاشفًا عن ثراء اطلاعها وسعة معارفها.

لقد تحدثت حديثًا تحليليًا عن حياة الفارابى الفكرية ومؤلفاته فى مجال الفلسفة الطبيعية والإلهية، ومنهج الفارابى فى تصنيف العلوم، ومبادىء الموجودات الطبيعية وعللها الأربعة، المادية والصورية والفاعلة والغائية، والعالم فى طبيعيات الفارابى، سواء عالم الكون والفساد، العالم الأرضى، عالم ما تحت فلك القمر، أو عالم ما فوق فلك القمر، العالم العلوى.

وانتقلت الدكتورة زينب عفيفى من دراستها لأبعاد الفلسفة الطبيعية عند الفارابى، إلى دراسة الفلسفة الإلهية عند الفيلسوف المشرقى، وذلك طبقًا للموضوع الذى اختارته كموضوع للدراسة للدكتوراه.

درست موضوع الأدلة على وجود الله تعالى والتى قدمها الفارابى وعلى رأسها دليل الممكن والواجب، ذلك الدليل الذى اتفق ابن سينا مع

الفارابى فى القـول به، واختلف مـعه الفيلسـوف العملاق، ابن رشـد، آخر فلاسفة العـرب، وبحيث قام بنقده نقدًا عنيفًا، إذ قـد نجد فيه بعض المؤثرات الكلاميـة، وابن رشد كمـا نعلم يعد أكبـر عدو لدود لفكر المتكلمين عـامة، وفكر الأشاعرة على وجه الخصوص.

كما تحـدثت الدكتورة زينب، حديثًا مطولاً ووافـيًا عن صلة الله تعالى بالعالم فى فلسفة الفارابى من خـلال القول بالفيض، أو الصدور، أو العقول العـشـرة، منتـقلة من هذا إلى تحليل مـشكلة الاتـصال وأبعـادها المعـرفـيـة والميتافيزيقية.

إن دراسة الدكتورة زينب عفيفى لفلسفة الفارابى الفيزيقية والميتافيزيقية، تعد دراسـة محكمة ودقيـقة، إنها تنتقل من دراسـة جزئية إلى دراسة جـزئية أخرى تترتب عليها. وهذا قد أدى إلى وجود وحدة عضوية سارية بين فصول وجزئيات ونقاط دراستها للفارابى.

ولم تقتـصر باحثـتنا الدكتورة زينب عـلى البعد الموضـوعي الأكاديمى والذى يسعى إلى سبـر أغوار الفلسفة الفارابية من خـلال الرجوع إلى العديد من المصادر والمـراجع العربية وغـير العـربية، وبحيـث تعول بصفـة رئيسـية وبالدرجة الأولى على كتب الفـارابى وكتب الفلاسفة الذين سـبقوه، والذين عاشـوا بعده، لم تقـتصـر على ذلك، بل نجدها - وهى الـتى تتميـز بالحس النقدى - تخـتلف مع هذا الرأى أو ذاك فى الآراء التى قيلت حـول الفارابى وبحيث وجدت أنه من الضرورى الوقوف تجاهها، وقفة نقدية.

وإذا كنا نختلف مع تلمـيذتنا بالأمس، وزميلتنا اليوم، الـدكتورة زينب عفيفى، فى رأى أو أكثر من الآراء التى قالـت بها من خلال دراستها للفارابى

والتى ذكرتها فى خاتمة دراستها، وفى ثنايا صفحات بحثها، أو كتابها، إلا أنه من الضرورى أن أشير إلى أن الاختلاف فى الرأى من طبيعة الفلسفة والتفلسف، إنه يعد كما نقول باستمرار ظاهرة صحية، وليس معبراً عن ظاهرة مرضية فاسدة، كما يزعم ذلك أنصار ثقافة الظلام من أشباه أساتذة الفلسفة والذين انتشروا حاليًا كالذباب الفكرى داخل جدران العديد من أقسام الفلسفة فى مصر وسائر بلدان العالم العربى من مشرقه إلى مغربه.

نعم إن الاختلاف يعد متوقعا، فنحن إزاء آراء فيلسوف عظيم، ولسنا أمام آراء واحد من الجهال، وكلما زادت مساحة الاختلاف كان ذلك دليلاً، ودليلاً قويًا، على ثراء آراء المفكر أو الفيلسوف. ولكن ماذا نفعل أمام ثقافة أشباه الأساتذة الذين ينهلون من الثقافة الفاسدة، ثقافة دول البتروفكر، الثقافة التى تعد نتاجًا للدولار، وما أدراك ما الدولار.

إننا من جانبنا نثنى ثناء بغير حدود على البحث الفلسفى الذى يحلل أبعاد الفلسفة الفارابية والذى تقدمه الدكتورة زينب عفيفى اليوم، للطبع والنشر. ونقدم التحية الواجبة علينا لباحثتنا جزاء إخلاصها فى البحث، وقدرتها الاكاديمية، ونرجو لها كل توفيق فى دراساتها المقبلة، وهى جديرة تمامًا بمواصلة البحث والدراسة، فالقضايا الفلسفية لا حصر لها، والأحكام الفاسدة والتى تحتاج إلى تصحيح فى مجال الفلسفة العربية، يتزايد عددها، نظراً لتزايد الأشباه والأقزام والجهال وأنصاف أو أرباع المثقفين.

نعم إننا نأمل من باحثتنا القيام بالعديد من الدراسات الفلسفية الجادة من جهة، وتصحيح الأحكام الفاسدة من جهة أخرى، لأنها على ثراء واسع من الاطلاع، وصبر على تحمل مشاق البحث الفلسفى العميق، ونظرات تأملية عميقة حين تتصدى لدراسة أى موضوع، أو أية مشكلة من مشكلات البحث

الفلسفى، إنها واثقة الخطوة لأنها لا تكتب إلا بعد اطلاع واسع على كل أبعاد موضوعها، وواثق الخطوة يمشى ملكًا كما يقال.

والله هو الموفق للسداد.

الإسكندرية فى ١٥ نوفمبر عام ٢٠٠١م

عاطف العراقى

تصدير عام

يحتل الفارابى فى تاريخ الفلسفة الإسلامية مكانة بارزة، خاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا ما تركه من تراث فكرى غزير تمثل فى مختلف العلوم التى كانت معروفة فى عصره. فقد عالج مسائل الطبيعيات، والإلهيات، والمنطق، والفلك، والتنجيم، والهندسة، والسياسة والأخلاق، هذا بالإضافة إلى علوم الدين كالفقه والكلام. بحيث أصبحت كتبه خلاصة وافية للمعرفة فى عصره، وذلك بالإضافة إلى العديد من الآراء التى توصل إليها والتى لا تعد من جانبه مجرد ترديد لآراء من سبقوه.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما تركه من أثر فيمن جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين فى العصور التالية - إسلامية كانت أو مسيحية أو يهودية - فما من فيلسوف من فلاسفة القرون الوسطى إلا وتربطه بالفارابى رابطة قرابة أو نسب فى الفكر والرأى، وما من فكرة أو نظرية أصلية فى الفلسفة الإسلامية إلا وتدين للفارابى، وما من مقالة فيها إلا ولها أصل فى مقالاته وفلسفته؛ أدركنا للوهلة الأولى أنه لم يكن عجيبًا أن يحتل الفارابى المقام الأول بين المفكرين والفلاسفة مما حدا بكتاب التراجم إلى وصفه بأنه أكبر فلاسفة الإسلام، وبأنه فيلسوف المسلمين على الحقيقة، وإلى تسميته بالمعلم الثانى توضيحًا لمكانته ومنزلته وأثره بعد المعلم الأول (أرسطو).

وإذا كانت المجالات المنطقية، والسياسية، والإلهية والأخلاقية من مجالات الفلسفة الفارابية قد جذبت انتباه الباحثين فى الفلسفة الإسلامية، ونالت اهتماما كبيرا من جانبهم، فتناولوها بالبحث وألفوا فيها الرسائل الجامعية والكتب العلمية، فإن الجانب الطبيعى من فلسفته لم يحظ من جانبهم بالاهتمام الذى هو به جدير. وليس هناك ما يبرز عزوفهم عن دراسة هذا

الجانب الهام من جوانب فلسفته، اللهم إلا إذا كانوا قد آثروا عدم الخوض فى مجالات قد لا تبدو فيها الناحية الابتكارية واضحة تماما. إذ أن أكثر جوانب فلسفته الطبيعية يكاد يكون فيها متأثرًا بأرسطو.

ولكن هذا لا يعد - فى رأينا - مبررًا قويًا لابتعادهم عن دراسة هذا الجانب من فلسفة الفارابى خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن كل فيلسوف هو الذى يصنع فلسفته بنفسه، فهو يعمل عقله فى فهم أغراض سلفه وسبر أغواره فى محاولة لتجاوزه والإتيان بما لم يستطعه، وهذا ما فعله الفارابى خاصة فى هذا الجانب. فقد اتضح لنا أن الفارابى قد تجاوز أرسطو فى بعض مسائل الطبيعيات خاصة فى تصويره للكون بقسميه (عالم ما تحت فلك القمر. وعالم ما فوق فلك القمر) كائنا عضويا عاقلاً مدبراً حكيما يجرى كل شىء فيه بدقة ونظام بعد أن بين تأثير العالم الأعلى فى العالم الأدنى.

كذلك تجاوزه فى مذهبه فى علل الموجودات حين أثبت الفاعلية للعلة الغائية، فالله الذى كانَ علة غائية عند أرسطو يصبح علة فاعلة عندَ الفارابى إلى جانب كونه علة غائية أيضًا، وشبه الاتصال بين الله والعالم عند المعلم الأول يصبح اتصالا حقيقيًا عند المعلم الثانى.

وهكذا يمكن القول بأنه رغم تأثره بأرسطو فى هذا المجال، إلا أنه قد وضع بصماته البارزة على مجال الفلسفة الطبيعية. لقد كان مضيفا تارة، حاذفا تارة أخرى، وكانت لديه القدرة على الاطلاع على كثير من الآراء كما كانت لديه قدرة كبيرة أيضًا على الهضم وعلى الاطلاع على العديد من الأفكار ثم صهر هذه الأفكار بحيث تبدو وكأنها لم تكن مجرد نقل آراء السابقين. ومن هنا تحددت معالم الشخصية الفارابية والمنهج الفارابى. والفيلسوف - أى فيلسوف - إنما هو ابن عصره وبيئته لا ينفصل عما يثار فى عصره من مشاكل، أو عما يموج به من أحداث متوقعة. فكأن مسألة العبقرية

أو الابتكارية إنما تعود إلى مقولات اجتماعية وثقافية وحضارية من خلال وجوده وتعايشه مع المجتمع.

وفى رأيى أن نبوغ الفارابى قد وضح حين تصدى لكثير من المشاكل المعلقة، والنقاط الغامضة والتى يتعارض بعضها مع البعض ولم تستطع الفلسفة اليونانية حلها أو إزالة ما فيها من تناقض وغموض. وليس أدل على ذلك من كلام المستشرق «هورتن» حين ذهب إلى القول بأن أرسطو لم ينجح فى وضع نسق شامل للعالم كله منظوراً إليه من خلال صورة ذهنية واحدة، فهو لم يرد جملة العالم إلى مبدأ واحد، إنما هى إثنينية تتقابل فيها الهيولى القديمة مع الله. وهذا المذهب الأرسطاطاليسى فيه عناصر علمية نظرية محضة، لكن النزوع القوى فيه إلى الاعتماد على ما فى الوجود الخارجى، وحده يشوبها ويعطلها أن الله عقلا صرفا ليس له إرادة وهو يحرك العالم باعتباره معشوقا «لا كعلة فاعلة، ثم هو يجهل الجزئيات وذلك مذهب فى الالوهية ليس بفلسفى».

أخذ الفارابى إذن على عاتقه سد أكثر ثغرات فلسفة أرسطو وجلاء كل غامض فيها، والبت فى كل ما تركه معلقا دون حل، وإحكام الصلة بين الله والعالم، وتحويل الله من علة غائية إلى علة فاعلة، وجعله محيطًا بكل شىء علما، وصهر الجزئيات جميعا فى نظرة واحدة شاملة تستغرق كل شىء فالحقيقة واحدة لأن منبعها واحد.

ويكفى أن نقول أنه مهد الطريق لمن جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين، بل جاء سابقًا لعصره فى بعض المجالات التى تناولها، صحيح أن بعض آرائه كانت مثارا لنقد النقاد، ولكنها لم تنس أو تهمل. فقد كانت مفتاحا للكثير من المشكلات، ونقطة التقاء من جهة، وتفرع عنها كثير من الاتجاهات من جهة أخرى. ومن هنا كانت عبقريته، ولكنها العبقرية التى أتمت بعض

الأجزاء وبدأت البعض الآخر وتركت منه أجزاءاً ناقصة حاول خلفاؤه إتمام بنائها. وتلك هى مسيرة الحضارة والتاريخ.

وقد يرى البعض أن دراسة جانب قد أثبت العالم الحديث بطلان أكثر أجزائه، بالإضافة إلى بطلان المنهج الذى اتبع فى دراسته، إنما يكون فى ذلك مضيعة للوقت ولا فائدة مرجوة من ورائه، ولكن هؤلاء قد تناسوا أننا ندرس تراثا فكريا كان فى يوم من الأيام خصبا معطاءاً، غزير الإنتاج، جليل الأثر، ازدهر به العلم والحضارة أمدا طويلا.

وقد اتضح لنا من دراستنا لهذا الجانب من فلسفته أن فيها نظريات وأفكار واتجاهات لا يمكن إغفالها، خاصة وإنها ترتبط ارتباطا وثيقا بسائر أجزاء فلسفته.

من أجل هذا آليت على نفسى تناول هذا الجانب وهو «الفلسفة الطبيعية» بالبحث والدراسة، ولكننى حينما شرعت فى تناول هذا الجانب وجدت أن الفارابى لم يكن هدفه الأساسى - شأنه شأن كثير من الفلاسفة الذين سبقوه، أن يتجه إلى البحث الدقيق فى طبيعة الكون وقضاياه بتناول جزئياته المادية، واستخلاص قوانينها لتفسير ظواهر هذا الكون، بقدر ما كان هدفه تجاوز ذلك كله من أجل أن يضع تفسيرا شاملا لأسس الوجود وطبيعته وما فيه من حقائق. فنظر إلى حقائق الكون نظرة الفيلسوف، فتداخلت المجالات الفيزيقية مع المجالات الميتافيزيقية فى أكثر الموضوعات التى تناولها، وأصبحت هناك طبيعيات إلهية أو بالأحرى مقدمات طبيعية للإلهيات، وتمت صياغة الطبيعيات على نحو عقلى خالص دون أى أساس تجريبى - هذا على الرغم من اهتمام الفارابى فى تصنيفه للعلوم وترتيبه لأقسام الحكمة بوضع الطبيعيات قبل الإلهيات، وبتحديد موضوع كل علم منهما وكذلك منهجه.

ولكن فى ضوء النظرة المتكاملة نحو الفكر الفلسفى فى الإسلام، والنظر إلى الحقيقة الفلسفية على أنها واحدة، يصبح من الضرورى، بل من المنطقى التلازم والترابط بين الفلسفة الطبيعية والفلسفة الإلهية بحيث يؤدى هذا التلازم فى نهاية الأمر إلى قيام العلاقة والتداخل بين البدء والنهاية.

ولذلك فقد رأيت اختيار الجانب الطبيعى والجانب الإلهى من نسقه الفلسفى محاولة بيان الصلة بين الجانبين وموضحة الأبعاد الفيزيقية والميتافيزيقية فى كل مشكلة وفى كل موضوع من الموضوعات التى تناولتها بالبحث فى هذين الجانبين.

هذا إلى جانب أننى وجدت فى فلسفته الإلهية عمقًا وغوصًا بعيدًا فى أغوار موضوعاتها، وإثارة لمشكلات كانت موضع مناقشات مستفيضة عند فلاسفة العصور الوسطى ومحاولاته وضع حلول لأكثر تلك المشكلات، كما وجدت فيها امتزاجا عجيبا بين فكر أرسطى، وفكر أفلوطينى، وفكر إسلامى وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على مدى ما تمتع به من نبوغ فذ فى تمثل تلك الاتجاهات جميعا وصهرها فى بوتقة واحدة حتى خرج لنا بمذهب متكامل، فكان بحق أول من فصل الفلسفة عن علم الكلام، ووضع لها الأساس الثابت الوطيد وأقام لها البناء الضخم الذى ظل يؤثر فى الفكر فى جميع العصور التالية إسلامية كانت أو مسيحية.

وأود أن أشير إلى أن اختيار موضوع «الفلسفة الطبيعية والإلهية عند الفارابى» إنما كان الهدف الأساسى منه سد فراغ فى المكتبة الفلسفية العربية. نعم فراغ عجيب خاصة بالنسبة لهذا الفيلسوف العميق التفكير الذى تتلمذ عليه كثير ممن جاء بعده من فلاسفة، والذى يمثل حلقة الاتصال بين الفكر اليونانى من جهة والفكر الإسلامى من جهة أخرى. فتناولت هذا الموضوع الذى لم يدرس بعد دراسة متكاملة.

أما طريقة معالجتنا لموضوع هذا الكتاب فتتلخص فى الآتى:

أولاً: أن هذا البحث لا يقتصر على حدود الفلسفة الطبيعية والفلسفة الإلهية عند الفارابى، بل يبحث فى صلته بسابقيه ومن جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين سواء كانوا موافقين له أو مختلفين معه. وقد دفعنى إلى ذلك ما وجدته عند فيلسوفنا من نظريات وآراء سبق للذين جاءوا قبله تقريرها، حتى أنه يمكننا أن نعد مذهبه مصبا لمعظم التيارات الفلسفية والعلمية التى سبقته خاصة أرسطو وأفلاطون وأفلوطين والكندى، وبحيث نكاد نقول أنه ما من فكرة وجدناها عند الفارابى سواء فى فلسفته الطبيعية أو فلسفته الإلهية إلا وقد أشرنا إلى مصدرها.

أما عن صلته بمن جاء بعده فلا يمكن لأحد أن ينكر تلك البصمات الظاهرة التى تركها الفارابى فى تاريخ الفكر عامة والفكر الفلسفى خاصة. فقد ظل اسم فيلسوفنا يتردد بلا انقطاع منذ ظهوره فى القرن الرابع الهجرى وحتى اليوم عند أكثر الفلاسفة والمفكرين الذين ظهروا فى تلك الحقبة من الزمان.

ثانيًا: إننا فى كتابنا هذا لم نقتصر على تقرير فلسفته الطبيعية والإلهية، بل تضمن بحثنا نظرتنا الخاصة وتأويلنا الذاتى لفلسفته خاصة فى هذين الجانبين، وما نتج عنهما من مشكلات عديدة، فلم أحاول عرض فلسفته بطريق الدفاع والتبرير، وإنما حاولت من جانبى تدبر آرائه ودراستها ثم الحكم عليها.

إن تلك النظرة الموضوعية إلى تراث الفيلسوف هى التى تساعدنا على فهم آرائه ونظرياته حق الفهم، كما أنها تساعدنا على الوقوف على الأخطاء التى تردت فيها الفلسفة الإسلامية.

فيكون ذلك عوناً لنا في دراستنا المستقبلية على تلافي تلك الأخطاء.

ثالثًا: إننا في معالجتنا لفلسفة الفارابي سواء الطبيعية منها أو الإلهية ينبغي علينا أن نضع نصب أعيننا بعض الأمور التي ربما تفسر كثيراً من المشكلات التي تواجهنا حين نسعى لفهم فلسفته، وربما تبرر لنا بعض الآراء المتناقضة التي وقع فيها الفارابي مع ماله من باع عظيم في الغوص في أعماق المشكلات الفلسفية والعلمية كمشكلة خلود النفس، وقدم العالم، وعلم الله، والمعرفة، والنبوة... إلخ.

من هذه الأمور: أن الفارابي كان فيلسوفا مسلما آمن بكل ما جاء به الإسلام، كما أنه فيلسوفا أفاد من الفلسفة اليونانية وأعجب بها إعجابا لا حد له، هذا بالإضافة إلى أن فلسفة أرسطو قد اختلطت لديه بفلسفة أفلاطون، والأفلاطونية المحدثة حين اعتمد على كتاب أثولوجيا المنسوب خطأ إلى «أرسطو» وهو «لأفلوطين». ولم يكن ذلك عن عمد كما اتهمه بعض المغالين. وربما يفسر لنا ذلك تذبذب بعض آرائه وتناقضها مع بعضها الآخر.

رابعًا: لما كانت كل دراسة فكرية لتراثنا تحتاج إلى عمق تاريخي يواكبها ويظهر معالمها، لذا فإننا قد اعتمدنا في هذه الدراسة على المصادر الأصلية والمنابع الرئيسية التي تعود للمفكر ذاته. وتلك وسيلة أجدى وأنفع وأكثر دقة من اعتمادنا على «ما نقل عنه»، خاصة في تحليلنا لمواقفه الفكرية والفلسفية، فأولينا عنايتنا للنصوص القائمة بين أيدينا فجاوزنا بذلك حد الشكل إلى حد المضمون،

وإن كان ذلك لم يصرفنا عن تناول الكثير من المراجع الحديثة التى تناولت فكر الفارابى وفلسفته الطبيعية والإلهية بنظريات حديثة ووجهات نظر مختلفة حاولت من جانبى أن أعرضها مع احتفاظى بحقى فى موافقتها أو مخالفتها.

ولما كان كل بحث منهجى عن التراث إنما يقوم على قاعدتين أساسيتين هما:

التحليل، والتركيب. فقد اعتمدت هذا المنهج فى دراستى لجوانب الفلسفة الطبيعية والإلهية عند الفارابى، هذا إلى جانب أننى لم أغفل الجانب التاريخى للمرحلة التى تقوم عليها تلك الدراسة.

وأود أن أشير إلى أننى قد عانيت فى أثناء بحثى من بعض الصعوبات. منها ما تعلق بأسلوب الفارابى فى مؤلفاته - فقد تميز أسلوب الفارابى بأنه شديد الغموض، كثير الإيجاز، وليس فى كلامه ترادف أو استطراد - فهو يعطى المعانى الغزيرة فى عبارات مقتضبة فلا يطيل ولا يسهب، ولا يميل إلى التكرار إلا قليلاً حتى يصعب فهم مقاصده وأغراضه أحيانًا. وصدق قول ابن خلكان «وأكثر مؤلفاته يقع فى رقاع منثورة وكراريس متفرقة إذ لم يترك من الكتب الطويلة والرسائل المسهبة إلا القليل، فجاءت تصانيفه - إلا أقلها - مضطربة... وهى بالفصول والتعاليق أشبه».

كما كان لفقد الكثير من مؤلفاته وخاصة فى مجال الفلسفة الطبيعية ما شكل لى صعوبة كبيرة، ولكننى بتوفيق من الله استطعت تخطى تلك الصعوبات فأوليت عنايتى بنصوص الفارابى التى وردت فى صميم كتبه، ومؤلفاته، وشروحه استخرج منها ما تعلق بالفلسفة الطبيعية حتى أمكننى الوقوف على آرائه فى أكثر الموضوعات التى تناولها فى الفلسفة الطبيعية، وشرعت فى كتابة هذا الجزء الخاص بالفلسفة الطبيعية بعد أن اطمأنت نفسى

إلى أن ما عثرت عليه من نصوص للفارابى فى هذا المجال يكفى لكتابة هذا الجانب.

كما تجدر الإشارة إلى أننى حاولت الحصول على كتاب نسبه «بروكلمان» إلى الفارابى باسم «المقالات الرفيعة فى أصول علم الطبيعة»، وهو وإن كان من الكتب المشكوك فى نسبتها إلى الفارابى إلا أننى حاولت الحصول عليه ولم أوفق. وفى رأيى أنه لن يزيد عن أن يكون شرحا لكتاب أرسطو فى الطبيعة، ولن يخرج عما ذكره الفارابى فى سائر مؤلفاته الأخرى، خاصة وأن الفارابى كان يتبع فى مؤلفاته طريقة التأليف الشامل، أى أن كل مؤلف من مؤلفاته كان يتضمن آراءه فى موضوعات الفلسفة من طبيعيات، وإلهيات، ومنطق، ورياضيات، وسياسة، وأخلاق... إلخ ولم يكن أكثر فلاسفة عصره قد عرفوا طريقة التأليف الجزئى المتخصص.

أما صعوبة فهم مغاليق الفارابى فى أسلوبه وعباراته فقد استطعت تخطيها بالرجوع إلى تلميذه وشارحه «ابن سينا» الذى بلغ من شهرته أن أصبحنا نعزوا إلى «ابن سينا» آراء وأفكاراً هى فى الحقيقة من صنع الفارابى وابتكاره، وابن سينا يعترف بذلك ويقر له بالسبق والأولوية كما يدين له بالنبوغ والأستاذية. وقد بلغ من تعلق ابن سينا بنظريات أستاذه أن بذل كل جهد فى تفهمها، وأفاض فى شرحها وتوضيحها بحيث منحها نفوذا وسلطانا لم تنله على يد صاحبها ومبتكرها.

وقد يؤخذ علينا أحيانًا محاولتنا تحليل أفكار الفارابى فى ضوء ما كتبه تلميذه «ابن سينا»، إلا أن الرجلين متكاملان يوضح كل منهما الآخر ويتممه، ولئن كان للفارابى فضل السبق. فإن لابن سينا فضل البيان والإيضاح. ولو احتفظ لنا الدهر بكل ما كتبه الفارابى فربما لم نستعين على

تفهمه بمؤلفات أتباعه، فـأما وأنه قد وصل إلينا منه نزر يسير فنحن مضطرون إلى توضيح غامضة بمختلف الوسائل.

وقد قسمت الكتاب إلى ثمانية فصول رئيسية تفرعت عن كل واحد منها بعض الموضوعات الفرعية:

ففى **الفصل الأول** منها: أوجـزت كل ما تعلق بحياة الفـارابى ومكانته الفكرية وأثرها فى تاريخ الفلـسفة، ثم حـاولت أن أبين كيف كـانت ظروف عصـره وما ظهـر فيه من صـراع سيـاسى وصراع فكرى له أثره الكبـير على فيلسوفنا خـاصة فى أسلوبه وفى بعض مؤلفاته، فلم يكن الفـارابى بعيدا عن صراع عـصره، ولم تكن مدينته الـفاضلة سوى دلالة روحيـة، واجتماعـية، وسيـاسية، وتاريخيـة عن حركة المجـتمع العربى الإسـلامى فى القرن الرابع الهـجرى، كـما كـانت تعبـيرا عن امـتزاج عـالمه الفكرى بواقعـه السيـاسى والاجتماعى.

كمـا كان للـصراع الفكرى وظهـور التيـارات الفكرية المختلفـة وتأثرها بانتشار حركة الترجمة فى عصـره أثرها الكبير على فيلسوفنا خاصة فى تناوله لبعض النظريات والمشاكل الفلسفية، ومحاولته التـوفيق بين مقتضيات العقيدة الدينية، والحقيقة الفلسفية وخـاصة ما يتعلق منها بمسائل الكون والطبيعة، أو مسائل إلهية تعلقت بالكون وخالقه وكيفية خلقه.

ثم تناولت مؤلفات الفارابى موضحة كـيف كان الفارابى منتجا إلى أبعد حدود الإنتاج فى شتى المجالات، فقد اقتربت مؤلفاته من المائة كتاب أتى فيها على الفلسفة بشـتى فروعها. ولكن وللأسف فقد ضـاع أكثر هذه المؤلفات، وحتى القليل الذى بقى منها شك فيه بعض الباحثين والمستشرقين.

كما أوضحت من خلال هذا الفـصل ذلك المجهود الضخم الذى قام به

المستشرقون فى ترجمة تراثه وتحقيقه ونقله إلى دول أوروبا مما كان له أكبر الأثر على الفكر الأوروبى وتاريخ الحضارة عامة.

وفى **الفصل الثانى**: تناولت منهج الفارابى فى تصنيف العلوم موضحة سماته، وأسسه، وكيف كان الفارابى أول من عنى بتصنيف العلوم وبإحصائها من بين فلاسفة العرب ومتكلميهم، بحيث كان لهذا التصنيف أثره على فلاسفة العرب فى المشرق والمغرب، كما كان له تأثيره على فلاسفة أوروبا فى القرون الوسطى.

وبما أننا نتناول فى كتابنا الجانب الطبيعى، والجانب الإلهى من فلسفة الفارابى فكان لا بد لنا من أن نعرض موضوع العلم الطبيعى ومنهجه، وموضوع العلم الإلهى ومنهجه، كما عرضهما الفارابى فى تصنيفه للعلوم، ثم أوضحت مقصوده بالفلسفة الطبيعية وموضوعاتها، وكيف انتهى الفارابى إلى علم إلهى طبيعى بحكم التداخل بين موضوعات الفلسفة الطبيعية الإلهية.

أما فى **الفصل الثالث**: فقد خصصته لتناول فلسفة الفارابى الطبيعية، وتناولت فى القسم الأول: مبادىء الموجودات الطبيعية وبدأت بالحديث عن ماهية الجسم وإثبات جوهرية المادة والصورة، ثم تناولت خصائص الهيولى والصورة ثم تحدثت عن العدم كمبدأ ثالث بالعرض للجوهر الجسمانى، وكان لا بد من التطرق إلى نقد الفارابى لنظرية الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزأ إذ أنه من القائلين بالمادة والصورة والعدم كمبادىء للموجود الطبيعى.

وفى القسم الثانى: تناولت علل الموجودات الطبيعية وهى العلة المادية، والعلة الصورية، والعلة الفاعلة، والعلة الغائية، وعرضت رأى الفارابى فى مشكلة السببية وإنكار المصادفة والاختيار، وما ذلك إلا لأن كل ما يحدث فى الكون إنما يحدث بأسباب محددة.

وأخيراً عرضت مشكلة السببية من خلال منظور نقدى ممثلا فى اعتراضات الغزالى والأشاعرة الذين ينفون العلاقات الضرورية بين الأسباب ومسبباتها، لأن فى القول بالعلاقات الضرورية بين الأسباب ومسبباتها تحديد من قدرة الخالق، كما فيها إنكار للمعجزات، كذلك عرضت رد ابن رشد على الغزالى واتهامه إياه بالسفسطة واعتباره أن من يرفع السببية فقد رفع العقل وأبطل العلم.

وفى القسم الثالث: تناولت لواحق الموجودات الطبيعية وهى الحركة، والزمان، والمكان والخلاء. وأثبت كيف أن الفارابى متابعا أرسطو قد اعتبر أن الحركة هى محور الطبيعة الذى تدور حوله إذ ليس فيها شىء أبرز منها، فنظرية الحركة هى نقطة الابتداء لجميع النظريات المتفرعة عنها، والمتعلقة بها. فهى أصل الزمان وأساسه، كما أن الحركة لا يمكن أن تتم إلا فى مكان، كما أن المتحرك لا يشترط لكى توجد الحركة وجود الخلاء، ومن هنا فقد نفى وجود الخلاء.

ولم تكن دراسة الفارابى لمبادىء الموجودات الطبيعية وعللها ولواحقها إلا بغرض تطبيق تلك الأسس العامة التى توصل إليها على كل الموجودات، ومن هنا فقد وجدناه يشرع فى تناول أحوال العالم وأجسامه وموجوداته وخصائصه... إلخ. وهو ما خصصنا له الفصل الرابع.

ففى هذا **الفصل الرابع**: عرضت رأى الفارابى فى موجودات العالم ومراتبها فى الوجود ثم أقسامه، حيث يتبين لنا أن الفارابى متابعا فى ذلك أرسطو قد قسم العالم إلى: عالم ما فوق فلك القمر، وعالم ما تحت فلك القمر، ثم بينت أثر العالم العلوى فى العالم السفلى، وأخيرا أثبت أن الفارابى رغم تقسيمه للعالم إلى قسمين إلا أنه أثبت أن العالم واحد متناه، وأن الأرض كروية ولكن ثابتة فى مركز الكون.

وقد تبين لنا كيف أبطل العلم الحديث أكثر النظريات التى وردت فى فلسفة الفارابى الطبيعية. ثم انتقلت بعد ذلك إلى تناول مسائل الفلسفة الإلهية. وبدأت بمدخل لهذه الفصول حاولت فيه توضيح كيف كانت مبادىء علم الطبيعة عونًا له على فهم أكثر مسائل ما بعد الطبيعة، وكيف ألقت الميتافيزيقا ظلالها على فلسفة الطبيعة عنده فتداخلت المجالات الفيزيقية مع المجالات الميتافيزيقية فى أكثر الموضوعات التى تناولها مما أدى إلى غموض بعضها واضطراب البعض الآخر.

وفى **الفصل الخامس**: تناولت بالدراسة "الله تعالى فى فلسفته الإلهية" مبينة دلائل وجوده، وصفاته تعالى. وقد حاولت أن أبين المصادر الدينية والفلسفية التى تأثر بها الفارابى فى مجال الألوهية، كما عرضت عددًا من الأدلة التى استدل بها الفارابى على وجود الله. وقد قسمت تلك الأدلة إلى أدلة كونية: كدليل الحركة، ودليل العلة التامة، ودليل العناية والغائية، وأدلة عقلية: كدليل الماهية والوجود، والممكن والواجب. موضحة كيف كتب لهذه الأدلة - كونية كانت أو عقلية - الذيوع والانتشار بحيث أصبحت تتخلل الفلسفة الإسلامية كلها من أقصاها إلى أقصاها كما تخللت فلسفة العصور الوسطى عند اللاتين.

ولما كان العقل البشرى عاجزًا عن بلوغ حقيقة "الله تعالى" ومعرفة ذاته، كان لا بد من وسائل نلتمس بها تلك الماهية المقدسة. وقد رأى الفارابى أن ذلك لا يكون إلا بخلع مجموعة من الصفات يمكننا بها الوقوف على حقيقة ذاته تعالى، ومن هنا يتناول الفارابى صفات الله شارحا إياها بالتفصيل فيعطى صفة الوحدانية الأولوية، كما يثبت له تعالى بعض الصفات وينفى عنه صفات أخرى إمعانًا فى تنزيهه.

وهكذا يمكن القول بأنه ذهب فى مذهبه فى الصفات إلى التنزيه المطلق، وأنكر إنكارًا تامًا وجود صفات إلهية مستقلة عن الذات. ومن هنا كان مبدأ أن الصفة هى عين الذات المستعار عن المعتزلة يشكل أساسا هاما تدور حوله فلسفة الفارابى الإلهية.

وقد حاولت عرض رأيه فى الصفات بموضوعية تامة فتناولت بعض أوجه النقد التى وجهت إليه سواء من جانب المتكلمين أو من جانب الفلاسفة.

وفى الفصل السادس: يتناول الفارابى "علاقة الله بالعالم" ويتساءل عن كيفية صدور الموجودات المتكثرة المتعددة من الله الواحد؟ وهل يمكن أن يصدر عن الواحد كثرة، أم أنه لا بد وأن يصدر عنه واحد؟

وقد وجد الفارابى فى مذهب الصدور أو الفيض الحل الأمثل لتفسير هذه العلاقة، بل إنه اعتقد أنها الحل الأمثل لكثير من المشاكل التى صاحبت الفلسفة فى تطورها وتعاملها مع المشاكل الأساسية كمشكلة الوجود، ومشكلة المعرفة، ومشكلة الشر... إلخ.

وقد عرضنا مذهبه فى الفيض كما عرضه فى سائر كتبه وبمستويه الذوقى والعقلى، موضحين الأسس التى قام عليها، والمصادر التى استمد منها القول بالفيض.

وفى الفصل السابع: تناولت بالبحث والدراسة مشكلة تتصل اتصالاً وثيقًا بمجال الألوهية وهى مشكلة الاتصال، أى اتصال الإنسان بالله وتحقيق السعادة القصوى له. فعرضنا لنظرية الاتصال كما قال بها الفارابى محاولين إيضاح عوامل تكوينها، والاتجاهات التى تأثر بها فى تقريره لنظرية الاتصال كالاتجاه الأرسطى، والاتجاه الأفلوطينى، والاتجاه الإسلامى. كما حاولت

بيان أبعادها المعرفية بنظرية العقول ومراتبها عند الفارابى حتى يصل إلى درجة العقل المستفاد التى تؤهله للاتصال بالعقل الفعال وتلقى نور العلم والمعرفة منه فتتحقق له السعادة القصوى.

كذلك حاولت بيان أبعادها الميتافيزيقية والتى وضحت تمام الوضوح من تناول الفارابى لمسائل الفلسفة الطبيعية وبالذات النظريات الفلكية، وكذلك من إقامة أكثر من دليل على وجود الله، ومن البحث فى الصفات الإلهية، ثم من نظرية الفيض وما ترتب عليها من القول بقدم العالم زمانا وحدوثه بالذات. وأخيرًا لا يمكننا اغفال اتصالها بإثبات جوهرية النفس وخلودها.

وهكذا كانت نظرية الاتصال التى يغلب عليها الطابع العقلى الوسيلة التى تمكن بها الفارابى من تحقيق السعادة القصوى، كما عرضت منهجه فى الاتصال بالعقل الفعال من خلال نص له من كتاب "فصول منتزعة".

كما حاولت بيان أثر نظرية الاتصال الفارابية فى الفكر العربى والعالم الغربى، وكيف اعتنقها يهود القرون الوسطى ومسيحيوها، كما اعتنقها فلاسفة الإسلام ومتصوفيه من قبل.

أما **الفصل الثامن والأخير**: فقد تناولت فيه مشكلة النبوة عند الفارابى موضحة عوامل اهتمام الفارابى بهذه المشكلة، فعرضت رأيه فيها وكيف كان هذا الرأى يمثل اتجاهًا عقليًا يختلف إلى حد ما عن الاتجاه الذى عرضت به المشكلة كما جاء بها الوحى، كذلك بينت أثر المخيلة فى حصول المعرفة النبوية وارتباطها بالأحلام. بالإضافة إلى ذلك فقد تناولت خصائص النبوة كما ذكرها الفارابى مع بيان رأيه فى الفيلسوف والنبى من خلال مقارنة بين موضوع النبوة فى الإسلام والنبوة كما تناولها الفارابى.

وأخيرًا عرضت النتائج التى توصلت إليها.

وبعد. أرجو أن أكون بهذا المجهود قد قمت بقليل مما ينبغى أن يقوم به الباحث فى مجال الدراسات الفلسفية، وأن أكون قد وفيت جزءاً من واجبى نحو أحد أجدادنا العظام، كما أرجو أن يكون كتابى هذا عونًا على تكوين رأى صائب إزاء فيلسوف له الفضل على كل من جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين. خاصة أن تناولنا جانب الفلسفة الطبيعية من مذهبه سيكون عونًا على تعديل نظرة الكثيرين من الباحثين لهذا الجانب من فلسفته والذين آثروا البعد عن تناوله بالدراسة استشعاراً منهم بغموضه وقلة مراجعه ويكون ذلك بداية لدراسات أخرى تثرى المكتبة الفلسفية، وتوضح للعالم كله دور فلاسفتنا وعلمائنا العظام فى التطور الحضارى من خلال تاريخ البشرية.

والله الموفق للسداد، ،